تأملات هادئة
فى المسألة الأندلسية الإسبانية

أ . د . الطاهر أحمد مكى

أستاذ الأدب فى كلية دار العلوم

بانتهاء عام ۱۹۹۳ تكون احتفالات إسبانيا بأمرين هامين فى تاريخها قد أوشكت على النهاية ، وهذان الأمران هما : سقوط دولة الإسلام فى الأندلس واكتشاف أمريكا .

وحول الأمرين أريق مداد كثير ، ومع ذلك فإن الحقيقة فيما يتصل بهما يلفّها ضباب كثيف ، أطفأ بهجة الاحتفال بهما ، وأحالهما إلى شىء فيه من الخجل بقدر ما فيه من الزهو ، يسعد به صاحبه - ربما - خفيةً وبعيداً عن الآخرين ، ويحتال على الأمر عند إعلانه فيطلق عليه مسميات خادعة ، أو يرفع عنه شعارات موهمة ، لكى يشغل الآخرين عن الجوانب السلبية فيه .

ومن بين الأمرين يهمنا سقوط دولة الإسلام فى الأندلس مباشرة وبخاصة .

فى صباح ٢ يناير ١٤٩٢ تقدم أبو عبد الله الصغير سلطان مملكة غرناطة وسلَّم إيزابيل ملكة قشتالة وفرناندو ملك أرغون مفاتيح قلعة الحمراء وقصورها إيذاناً بانتهاء دولته ، ثم سلك طريقه إلى الجنوب حيث أقطع أراضى شاسعة ، وقبض مبلغاً كبيراً من الذهب ، تبين فيما بعد أن معظمه مغشوش ، وانتهى الحال بأحفاده بعد سنين فقراء يسألون الناس إلحافاً على أبواب المساجد فى مدينة فاس .

ولم يكن عامة الناس راضين بهذا الموقف ، رغم أن المعاهدة التى وُقعت بين الطرفين حفظت لهم شرفهم وكرامتهم وأموالهم وحرية عقيدتهم ، وأبدوا

استعداداً طيباً لمواصلة القتال ، وتحمل أعباء الحرب ، ولكن العدو حاصر الجماهير بشراء ذمم الوزراء ومستشارى السلطان فكانوا انهزاميين حتى النخاع يثبطون المتحمس ، ويحبطون الأمل ، وضاعت ثورة الجماهير وحماستهم بدداً ، ولم تؤد إلى شيء .

وظل الإسبان فى غرناطة بالذات يحتفلون بهذا اليوم كل عام حتى يومنا هذا ، ففى كل عام ، فى نفس اليوم ، تخرج من الكنيسة الجامعة ، حيث يدفن الملك فرناندو ، إلى دار البلدية ، حيث عمدة المدينة ، ثلة محدودة من الجند ، تصحبها فرقة موسيقية متواضعة ويتقدمها صغار رجال الدين والإدارة ، ويلتف حولها عدد من الفضوليين وترفع ألواناً مختلفة من الأعلام والبيارق ، وشُهدت بنفسى الحفل أكثر من مرة ، وسألت العامة عن المناسبة ، فلم أجد عند أحد رداً ، ولا معرفة بأسباب الاحتفال .

تنكر المتنصرون لكل بنود المعاهدة بعد عامين فحسب من توقيعها ، وأدى هذا إلى ردّ فعل قوى بين المهزومين ، وتوالت ثوراتهم ، وأترك للمستشرق الألمانى فون شاك (١٨١٥ - ١٨٩٤) يصف لنا آخر ثوراتهم وما ترتب عليها ، أترجمه حرفياً عن كتابه « شعر العرب وفنهم فى إسبانيا وصقلية » :

« اشتعلت الثورة حية متوهجة ، وغطى الموريسكيون المسلمون كل منطقة البشرات ، وارتفع صوت المؤذن عالياً فوق المنارات : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، ولكن نهاية هذه المحاولة اليائسة التى استهدفت إعادة الدولة الإسلامية كانت سابقة لأوانها ، وبدل أن نذكر كيف أخمدت هذه الثورة فى طوفان من الدموع والدماء نؤثر أن نرخى الستارة على هذه المأساة . ولقد استولى خوان دى أوستريا ، وكان ابناً غير شرعى للإمبراطور كارلوس الخامس ، على مدينة جليرة وأعدم كل سكانها ذبحاً دون تمييز بين رجل وامرأة ، أو بين عجوز وطفل .

« وبعد أن سقطت بقية القلاع القوية فى سلسلة جبال البشرات فى سديد

الإسبان ، وجلها سقط بسبب الخيانة ، وزعوا كل الموريسكيين الذين استسلموا فى مقاطعة غرناطة على بقية المقاطعات ، أما الذين اختفوا فقد اصطادوهم كما لو كانوا وحوشاً ، وقُدِّموا إلى المقصلة لذبحهم ، وكثيرون استطاعوا أن ينجوا بأنفسهم عبر البحر ، ولكن حب الوطن ردَّهم إلى الأندلس من جديد ، حيث سقطوا بين مخالب محاكم التفتيش ، وقدموا مشاهد تدعو إلى العظة والاعتبار ، فى محاكمات الإحراق بالنار علناً ، وقام بها المخلصون جداً للكاثوليكية .

« وكان موقف الذين حملوا إلى مقاطعات أخرى داخل إسبانيا أسوأ من الرق نفسه ، فالحديث باللغة العربية أو العزف على آلة موسيقية مما كان يستخدمه العرب وغيرها ، جريمة يعاقب عليها بالسجن مدى الحياة .

« ورغم كل هذا يعترفون بأن هذه الوسائل جميعها لم تبعد بالموريسكيين كثيراً عن عاداتهم القديمة ، ولم تستطع إرغامهم على أن يتحولوا عن دينهم مخلصين ، وإذا حملوا موريسكياً إلى السجن لم يكن يقاوم ، وعادة يقبل التصالح معهم أملاً فى الحرية ، ولكن إذا بلغ النهاية ، وجاءت لحظة الاحتضار ، وكان على أبواب الآخرة ، يرفض الكاثوليكية فى صوت حاسم واضح ، ويموت على الإسلام ، ويلقَى الله وهو يردد بين شفتيه : لا إله إلا الله محمد رسول الله .

« ومن ثم بدا للحكومة الإسبانية واضحاً أن الدين الذى جاء به محمد لا يمكن استئصاله من شبه الجزيرة الإيبرية إلا مع آخر نفس يخرج من آخر موريسكى ، وحينئذ توجه تقى من كبار رجال الدين الكاثوليك (!!) بمذكرة إلى الملك يؤكد له فيها أنه على قناعة كاملة بأن قتل كل الموريسكيين مناسب ومفيد ومباح ، ولكن أسقف بلنسية ، ولم يكن بأقل تقوى ولا تديناً من مواطنه ذاك ، كتب أيضاً تقريراً آخر أوضح فيه أن الواجب المقدس يفرض القضاء على جميع الكافرين ، أى المسلمين ، وأكد أن كل المصائب التى

انصبت على رأس إسبانيا خلال نصف القرن الماضى كانت عقاباً عادلاً من السماء على التسامح الزنديق الذى اتبعته الحكومة مع الموريسكيين ، ويمضى مستنتجاً : إذا كان غير عملى أن يقتل الملك مئات الألوف منهم ، فمن الواجب عليه أن ينفيهم جميعاً ، وإذا بدا له فمن الأفضل أن يحكم عليهم بالسجن المؤبد ، أو بالأشغال الشاقة فى مناجم أمريكا اللاتينية ، ومثل هذا الحال يعد تساهلاً معهم إلى حد كبير ، لأننا إذا نظرنا إلى الأمر فى جدية فإنهم يستحقون الموت جميعاً .

« وتلا هذا التقرير طرد جميع الذين ينحدرون من أصول إسلامية فى حكم الملك فيليب الثالث (عام ١٦٠٩) وعندما فقدت إسبانيا أنشط فلاحيها ، وأمهرهم تحولت إلى صحراء قاحلة لا تصلح إلا موطناً للكاثوليك المحافظين » .

(ص ١٢٧ ، ١٢٨ من الترجمة العربية ، الجزء الثالث ، بعنوان : الفن العربى فى إسبانيا وصقلية ، ط ٢ ، دار المعارف) .

كان المنتصرون والمنهزمون من جنس واحد فى جملتهم ، وإن فرَّق بينهم الدين ، ولم تكن إسبانيا الدولة والأمة قد وُجدت بعد ، فقد اختفى اسم إسبانيا مع الفتح الإسلامى من كل المدونات اللاتينية والعربية ، ولم يرد فى أى مصدر تحت أى مدلول ، إلا مرة واحدة فى القرن الثالث عشر فى ملحمة السيد ، وهو نص أدبى ترجمناه إلى العربية منذ سنوات ، وربما كانت من عمل الناسخ ، وبعد هذا القرن ربما تردد الاسم فى نصوص أخرى قليلة للغاية ، أما إسبانيا الدولة فهى من عمل القرن السادس عشر ، بعد سقوط دولة الإسلام هناك ، وقبله كان فى شبه جزيرة إيبريا ممالك كثيرة : البرتغال وأرغون وقشتالة ونبرة وغرناطة ، والأخيرة وحدها تتحدث العربية وتدين بالإسلام ، على حين تدين البقية بالكاثوليكية ، وتتحدث لغات مشتقة من اللاتينية ، أو ليس لها صلة بهذه على الإطلاق كما هو الحال فى لغة الباسك .

وجملة السكان فى هذه الممالك كلها ، من اتخذ الإسلام ديناً أو اعتقد فى

الكاثوليكية ، ينحدرون من أصول واحدة : لاتينية وقوطية وسلتية وفينيقية وأفريقية ، وحتى عربية وبربرية ، ظلوا فى المناطق المسيحية ، واحتفظوا بدينهم وعرفوا باسم المدجنين ، ويقابلهم مواطنون احتفظوا بمسيحيتهم وظلوا فى الدولة الإسلامية وعرفوا باسم « المستعربون » .

وإذن لم تكن الحرب التى استمرت طوال قرنين ونصف من الزمان بين مملكة غرناطة وبقية الممالك فى شبه جزيرة إيبريا حرباً بين مستعمرين غزاة وآخرين يحررون أوطانهم ، وإنما كانت بين السكان المسلمين فى الجنوب الشرقى ، وبين السكان المسيحيين فى بقية الممالك فى الشمال والغرب ، ولم تنتصر فيها إسبانيا على العرب ، وإنما انتصر المسيحيون على المسلمين ، وكلهم ينتمون إلى العناصر نفسها ، ويعيشون على أرض واحدة ، وإن توزعتهم ممالك صغيرة مستقلة ، وكانت المملكة الإسلامية أكثر تحضراً وثقافة وتمدناً ، وأقرب إلى حياة العصر الحديث ونظمه من بقية الدول المجاورة لها .

كان من الممالك المسيحية فى اقتتالها مع المملكة الإسلامية آخرون جاءوا من وراء الحدود : إنجليز وفرنسيون وألمان وإيطاليون ، ومن وراء هؤلاء الفاتيكان ، وكان ولا يزال قوة اقتصادية وسياسية رهيبة ، يلهب الحماسة فى النفوس ، ويبارك الذاهبين إلى القتال ، يمحو ذنوبهم ويمنحهم البركات ، ويُقطعهم القصور والجنان فى الآخرة ، على حين وقف المسلمون وحدهم ، أحياناً تأتيهم معونة محدودة من بنى مرين فى المغرب ، ويركنون أحياناً أخرى إلى هدنة أو معاهدة مع إحدى ممالك الشمال المسيحية ، توقف الحرب ، وتمنحهم هدنة يلتقطون فيها أنفاسهم ، ويعيدون ترتيب صفوفهم وأوراقهم ، أو يلعبون على الخلاف الذى كان قائماً بين الممالك المسيحية نفسها ، فينصرون فريقاً على آخر ، ولكنهم لم يتلقوا أى عون من المسلمين فى المشرق .

فى ذلك الوقت كان فى المشرق ثلاث قوى رئيسية : المغول ومصر وتركيا ، وقد وقف المغول فى نظرتهم السياسية عند ما يستطيعون احتلاله من

البلاد الإسلامية ، ودورهم السلبى تخريباً وتدميراً أوضح من أية إضافات فى مجالات الفكر أو السياسة . وحاولت قوة الترك الصاعدة ، وزامنت سقوط دولة الإسلام فى الأندلس ، أن تفيد من الأندلسيين المغلوبين فى معرفتهم بالمسيحيين ، فوجهتهم إلى نزع الأمان من الأساطيل الأوربية التى تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط وقاموا برسالتهم كاملة فى حدود طاقتهم ، وكان إنجازهم باهراً ، ودون أن يقدم لهم الأتراك شيئاً يعينهم على الصمود فى وطنهم ، ولم تجد رسائل الاستغاثة التى توجهوا بها إلى الخليفة فى القسطنطينية أذناً واعية ، واتسم موقف الأتراك فى هذه القضية بقصر نظر سياسى فادح ، دفعوا ثمنه غالياً فيما بعد ، ومع اقتراب نهاية القرن السادس عشر حققت أوربا مجتمعة نصراً حاسماً على الأتراك فى موقعة لبانتى البحرية عام ١٥٧١ ، وبعدها أخذت قوة العثمانيين فى الانحدار .

وعاصرت أحداث سقوط الأندلس فترة الضعف فى تاريخ مصر الوسيط فقد أنهكت قواها الحروب الصليبية المتوالية ، وصد غارات التتار والمغول وانهيار اقتصادها بسبب الحروب السابقة من جانب . واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح من جانب آخر ، فقد أدى هذا إلى هبوط كبير فى دخل مصر من الضرائب التى تجنيها من التجارة المتجهة من أوربا إلى المشرق أو بالعكس ، فقنعت على غير عادتها برسائل التشجيع إلى الغرناطيين ، وتهديد الملوك المسيحيين دون أن يتجاوز رد الفعل دائرة الكلام . لقد خسر الإسلام مصر القوية التى تتحمل أعباءه ، وتصد عنه عاديات الزمان ، وأثبتت الظروف ألاّ أحد على الإطلاق يمكن أن يقوم بدورها حتى لو كان أوسع ثروة ، وأكثر عدداً ، وأقوى جيوشاً .

يمثل سقوط مملكة غرناطة ، دون أدنى شك ، نقطة تحول حاسمة فى حياة المسلمين والمسيحيين على السواء ، فقد أنهى الغرب المسيحى معركته الحاسمة فيمن يتصورهم دخلاء على أوربا ، مع أن المسيحية نفسها نبتٌ شرقى ، إن لم نقل سامياً ، وحُرِم المسلمون من علاقات متواصلة مع أوربا الناهضة يفيدون منها فى تطوير حياتهم وتجديد أساليب عيشهم ، وتطعيم علومهم وثقافتهم

بكل جديد ، وكانت الأسوار التى ارتفعت بين الحضارة الأوربية الصاعدة والحضارة الإسلامية المتردية عالية وقوية . حتى أن المسلمين ظلوا لقرون عديدة لا يعرفون عن المستحدثات التى تجرى فى الجانب الآخر من البحر الأبيض شيئاً ، وكان الغزو الفرنسى القارعة التى أيقظت ، وعبقرية « محمد على » هى التى أتت على هذه الجدران الفاصلة ، بإرسال البعثات واستقدام الخبراء ، وترجمة المؤلفات ، واستيراد المعدات .

مرت نظرة أوربا والإسبان إلى دولة الإسلام فى الأندلس بمراحل مختلفة :

فى البدء ، وكانت الكلمة العليا للكنيسة ، رأوها استعماراً إسلامياً جاء من الخارج ، رغم أن دولة الإسلام كانت مستقلة فى معظم تاريخها ، وأن الأسرة القوطية المالكة التى انهزمت أمام المسلمين جاءت من شمال أوربا ، وكانت وثنية فى أيامها الأولى ، ولم تكن بأكثر إسبانية من الأمراء الأمويين أو سلاطين مملكة غرناطة الذين جاءوا من المشرق .

وحين حلت القومية مكان الرابطة الدينية حلت كلمة الاستعمار العربى محل الاستعمار الإسلامى ، إلى أن أرسل الكاتب الفرنسى الكسندر ديما مقولته : « إن أوربا تنتهى عند جبال البرانس » يعرض فيها بتأخر إسبانيا وتخلفها ، فانبرى المفكرون الإسبان للرد عليه ، ولم يجدوا فى تاريخ وطنهم ما يفاخرون به أوربا غير فترته الإسلامية ، وكان تقدمها العلمى والفكرى وراء نهضة أوربا فى كل المجالات ، وهى فكرة سبق بها قبل ذلك بقرن من الزمان الراهب خوان أندريس ، فى كتابه الجيد : « أصول الأدب بعامة وتطوراته وحالته الراهنة » ، وألفه بالإيطالية ، وجاء فى سبعة أجزاء كبار ، ونشره فى بارما بين عامى ١٧٨٢ و ١٧٩٨ ، وحين كان منفياً فى إيطاليا ، وأكد فيه تفصيلاً ومستفيضاً أن حضارة الأندلس كانت وراء يقظة أوربا فى جوانبها المختلفة ، ولكن الإسبان وأوربا أهملوا الكتاب ومؤلفه كلية ، فلم يطبع ثانية على أهميته ، لا فى الإيطالية ولا فى الإسبانية التى ترجم إليها ، ولا يعرف أحد عن الكتاب وصاحبه شيئاً باستثناء قلة من المتخصصين .

حمل هذه الدعوة خوليان ريبيرا (١٨٥٨ - ١٩٣٤) ، مستشرق أصلاً من بلنسية حيث تعمقت الحضارة الإسلامية وتركت بصماتها فى أسماء القرى

وحياة الناس حتى يومنا ، ورفع شعار « قومية الثقافة الأندليسة » ، وأنها إسبانية بقدر ما هى عربية أو إسلامية ، فقد أسهم فيها بالجهد الأكثر أناس ينحدرون من أصول إسبانية ، وتغذت من التربة الإسبانية ، وإن كان أهلها يتكلمون ويكتبون بالعربية ويدينون بالإسلام ، فالإسلام ديناً ليس مِلكاً لقوم دون آخرين ، ولا وقفاً على جماعة دون غيرها ، ويمكن أن ينتمى إليه من يشاء مهما كانت القومية أو الأصول العرقية التى ينحدر منها .

بهذا الفهم الجديد حاول أن يكون عادلاً فى تناول القضايا المتصلة بالأندلس ، وأن ينصف مرحلة من تاريخ أمته تبلغ أكثر من ثمانية قرون وأسس مدرسة تبنت هذا الاتجاه ، وجاءت أبحاثه نفسها مهتدية بهذا الروح ، وكان كمن يسير على الشوك أو يجتاز « الصراط » ، لأن الكنيسة كانت بذكائها وقوتها ومنظماتها تسيطر على الحياة الفكرية والثقافية والسياسية ، ولا تترك لمثل هذا الاتجاه فى البحث إلا هامشاً محدوداً ومتواريا فى الحياة ، وكان على منصفى الحضارة الإسلامية أن يقرروا ما يريدون على استحياء وفى حذر شديد .

وعرفت إسبانيا فى فترة الحكم الجمهورى الثانية (١٩٣٢ - ١٩٣٦) « كيف ترد إلى إسلام الأندلس مكانته فى مراتب الشرف ، وادعت علناً مرفوعة الرأس ، أن تراث الأندلس زهرة يانعة الجمال فى تراثها التاريخى والفكرى ، ولم تجد حرجاً فى الاحتفال مزهوة بمرور ألف عام على تأسيس الخلافة الإسلامية فى قرطبة » .

وحين انتصرت الفاشية عام ١٩٣٩ عاد كل شىء إلى ما كان عليه من قبل ، وكان على الجنرال فرانكو أن يوازن بين أمرين : متطلباته السياسية فى تحسين علاقته مع العالم العربى ليواجه العداء الأوربى القاسى ، وأن يرضى الكنيسة فى تحقيق غاياتها من طمس معالم الإشراق والازدهار فى حضارة إسبانيا الإسلامية ، وتقديمها للجمهور على أنها فترة استعمارية أحسنت إسبانيا التخلص منها ، وكانت الكنيسة تسيطر على المؤسسات الثقافية الصحافة

والجامعة ، والمكتبات ، ومراكز البحوث ، والمجالس العلمية ، وكان على المفكرين أن يسايروا هذا التيار أو يهاجروا أو يموتوا جوعاً ، بينما تظاهرت الحكومة رسمياً باعتزازها بهذا التراث ، وبخاصة فى المناسبات الرسمية ، وعلى استحياء دائماً .

مع موت فرانكو وسقوط الفاشية وانتصار الديمقراطية تغيرت أشياء كثيرة : تقررت حرية العقيدة ، ورفعت وصاية الكنيسة عن مؤسسات كثيرة ، وتقرر الحكم الذاتى لمناطق متعددة ، على تفاوت فى جرعته ، وأصبحت المحافظات الجنوبية - التى تعرف باسم أندلثيا ، واستقر فيها الإسلام أطول زمن ، وتضم محافظات : قرطبة وغرناطة وإشبيلية ومالقة والمرية وقادس وولبة وشريش - مستقلة ذاتياً ، وبدأ تلاميذ المدارس الإبتدائية والثانوية يدرسون فترة الحكم الإسلامى على أنها فترة من تاريخ بلادهم ، فلا استعمار ولا دخلاء .

منذ سنوات خلت بدأت إسبانيا تعد نفسها للاحتفال بمناسبتين كبيرتين فى تاريخها : انتصار الإسبان على العرب أو المسلمين كما تراه الكنيسة والإسبان المحافظون والمتأوربون ، أو انتصار الإسبان المسيحيين على الإسبان المسلمين كما هو فى واقع الحال ، واكتشاف أمريكا على يد كولومبس (أو كولون كما ينطقه الإسبان) ، وكلا الأمرين تم عام ١٤٩٢ ؛ الأول فى بداية العام ، والثانى فى نهايته ، وأخذت لذلك كامل أهبتها لتحقق لها مزيداً من المكانة الدولية وسط المجموعة الأوربية ، بعد أن ازدهرت اقتصادياً ، فكان تخطيطها الرائع لمعرض دولى ضخم أقيم فى إشبيلية ، حيث بدأت رحلة كولومبس ، واعتبار مدريد عاصمة ثقافية لأوربا عام ١٩٩٢ ، إلى جانب مهرجانات أخرى تقام فى إسبانيا نفسها ، كالألعاب الأولمبية وغيرها ، وخارجها فى أمريكا اللاتينية والعالم أجمع ، وتلقت وزارة التعليم فى مصر رسالة من مستشارنا الثقافى فى مدريد منذ أعوام خمسة يدعو الوزارة للتخطيط للاحتفال بالمناسبتين فى مصر ، وأذكر أن الوزارة أحالت علىّ الدعوة تسألنى فيما يمكن أن يكون عليه الاحتفال ، وكان رأيى واضحاً : إذا دعينا فلنذهب ، أما نحن فغير معقول أن نعترف بهزيمة دولة إسلامية ولا معقول أيضاً أن نحتفل باكتشاف

إسبانيا للعالم الجديد ، فلسنا من أولئك ولا هؤلاء ، واستجابت الوزارة ، ونامت الفكرة ، وإن ذهب بعضهم على حساب مصر ليشاركوا الإسبان فى هذه الاحتفالات !

كانت إسبانيا تود اعتصار المناسبة لصالحها حتى آخر قطرة ، وحرصت فى الوقت نفسه على ألا يجىء الاحتفال بالماضى على حساب الحاضر ، وكان دون الاحتفال بالانتصار على المسلمين فى غرناطة أهوال سياسية : تذكر العالم المتحضر بالمذابح المروعة التى لقيها المسلمون على يد مواطنيهم المسيحيين (وهى صورة طبق الأصل من مذابح البوسنة والهرسك) والملاحقات اللا إنسانية ، بالإعدام حرقاً والقتل تعذيباً ، وإحراق الكتب بالآلاف ، وطرد المسلمين من وطنهم بالملايين ، وتنصيرهم قهراً ، وكلها أمور لا تشرف أحداً فى أيامنا ، وضد المواثيق والمعاهدات ، فضلاً عما تثيره لدى المسلمين من حزازات وحساسية وتذكير بفترة مأسوية وقاسية ، ومن هنا اختارت للمناسبة عنواناً جديدا متحضرا ، ووسيلة ثقافية مجدية . أما العنوان فكان : اكتشاف الأندلس من جديد ، وأما الوسيلة فنشر الكثير من المخطوطات الأندلسية بعد تحقيقها وترجمتها إلى الإسبانية ، وقدم معهد التعاون مع العالم العربى جهداً رائعاً فى هذا الجانب ، وجاء إسهامه راقياً ومتحضراً ، وجعل من المناسبة وسيلة للتلاقى والمحبة والتفاهم ، فلا منتصر ولا مهزوم ، وإنما هناك حضارة ازدهرت على أرض الأندلس عرف العالم جانباً منها ، ولا تزال بقية جوانبها الأخرى خفية ، ومن صالح الجميع أن تقدم إليهم كاملة ، وأن يُمكَّن الدارسون منها ، ومن الوصول إلى كل وثائقها .

هذا إلى جانب عشرات الدراسات والأبحاث التى قام بها الكتاب والمفكرون درست الحدث نفسه وما ترتب عليه من آثار ، من انهيار إسبانيا اقتصادياً ، وما لحق بسمعتها بين أوساط المفكرين فى العالم أجمع ، وأوضحوا المظالم التى لحقت بمواطنيهم قبل خمسة قرون خلت ، وهى أبحاث تتسم فى جلها بالموضوعية ، ترفع من قدر مؤلفيها ، وتشرِّف البلد الذى نشرت فيه ، ويلفت النظر أن الرسالة التى توجه بها ملك إسبانيا بمناسبة العام

الجديد ، وعدَّد فيها إنجازات إسبانيا فى العام الذى انقضى ، أتى على الكثير ، ومن بينه مرور خمسة قرون على اكتشاف أمريكا ، ولكنه لم يشر من قريب أو بعيد إلى إخراج المسلمين ، أو سقوط دولة الإسلام .

وكانت المناسبة الثانية اكتشاف أمريكا ، وهو عمل قامت به إسبانيا وحدها ، وقد استعدت للمناسبة ، وأملت من ورائها كثيراً : تأكيد صلاتها بالعالم الجديد ، وأعطته لغتها ودينها ، وربطته بها روحياً وفكرياً ، وإليها ينتسب رجال الطبقة الحاكمة فى معظم دوله ، غير أنها تجاهلت أمرين هامين : نمو الطبقة الوسطى فى هذه الدول ، وهى مهجنة فى معظمها ، من آباء إسبانيين وأمهات هنديات أو زنجيات ، وثمرة علاقات غير شرعية فى الأعم ، وارتقاء وعى الطبقة الدنيا ، وإحساس أولئك وهؤلاء بأن الغزو الأوربى لبلادهم ، وطليعته الإسبان ، دمر هويتهم وحضارتهم ، اجتث لغاتهم الوطنية ، وأتى على معابدهم ، وأذل رموزهم ، وأكرههم على اعتناق الكاثوليكية ، ومحا كل آدابهم ، وجعلهم كأنهم ولدوا فى القرن السادس عشر فحسب ، ولم يكونوا قبله أمماً ولا بشراً .

لدينا شاهد صدق على ما حدث لا شك فيه ، رسالة الراهب الإسبانى بارتولوميه دى لاس كاسس ، فقد شهد ما وقع منذ أعوام الفتح الأولى ، وهالته المذابح والقسوة التى عومل بها الهنود ، وسجل بعض ما رأى فى رسالة توجه بها للملك فى مدريد ، وصلتنا كاملة ونشرت فى المكسيك ، ثم لقى الملك شخصياً فيما بعد ، واتهم الحكام والموظفين والجنود ورجال الدين بأنهم كانوا فى معاملتهم مع الهنود بلا أخلاق ، وحوشاً وظالمين ، وهى صيحات ضاعت فى الهواء ، ولم تحدث أى أثر بين المتعطشين للثراء والذهب والهنديات !

ومن هنا رفضت كل من أمريكا فى الجنوب والشمال أن تحتفل بهذه المناسبة ، وفى بعض العواصم قامت المظاهرات تهتف بسقوط كولومبس ، وتضغط على حكوماتها ليعتذروا عن قبول الدعوات التى ستقام فى إسبانيا نفسها بهذه المناسبة . وهم فيما يرى الكاتب الإسبانى الشهير أنتونيو جالا يتهمون « المسيحية بأنها جاءتهم بالحزن ، وكان وصولها بدء تعاستهم ، وبداية آلامهم ، علمتهم الخوف ، وأذبلت زهورهم كى تتفتح زهورها » . وأوجز

مثل جواتيمالى حالة الهنود : « قالوا لنا : أغمضوا أعينكم حين تصلون ، وأغمضناها ، وعندما فتحناها وجدنا بين أيدينا الإنجيل وبين أيديهم أرضنا . »

فى ١٢ أكتوبر عام ١٩٩٢ عقد رجال الدين فى أمريكا اللاتينية مؤتمراً عاما فى سانتو دومينجو عاصمة الدومينيكان ، ورأسه أسقف مدريد ، رئيس الكنيسة الإسبانية ، وافتتحه البابا ، وفيه التمس المجتمعون علانية من الله أن يغفر للكنيسة ورجالها الذنوب التى ارتكبوها أثناء حملة التنصير التى رافقت غزو القارة ، من إراقة الدماء البريئة ، والاسترقاق الشامل ، وحالة الفقر التى تعيشها الملايين ، واستغلال السلطة ، والملاحقات العامة والفردية والتعذيب والاحتقار الذى تعرَّض له المواطنون الأصليون ، والأنانية والغرور والعنف السائد بين الأفراد فى علاقاتهم ، أو بينهم وبين الدولة ، ونهب الثروات الطبيعية ، واحتقار ثقافة تلك الشعوب وحضارتها .

واعترف المجتمعون بأن الكنيسة التزمت الصمت إزاء المظالم التى ارتكبت فى حق المواطنين ، وكان من الضرورى مواجهتها ، وطالب أسقفا البرازيل وجواتيمالا بأن تتوجه الكنيسة إلى الجماهير نفسها تطلب عفوها عما ارتكبت فى حقها وحق أسلافها ، وأن تؤكد لهم أنها لن تعمد منذ الآن إلى استعمارهم ثقافياً ، أو تحاول محو تراثهم وتاريخهم .

وقبل نهاية المؤتمر قدَّم أسقف البرازيل طلباً موقعاً عليه من ٣٣ من رجال الدين ، بينهم ١٢ أسقفا ، يطلبون عقد قداس خاص يرجون فيه من الله أن يعفو عن المظالم التى ارتكبوها فى حق الهنود والمنحدرين من أصول أفريقية ، وعن الاستغلال الذى تعرَّضوا له عبر ٥٠٠ عام مضت ، ولكن طائفة أخرى اعترضت عليه ، لأن مثل هذا القداس سوف يستغل ضد الكنيسة نفسها ، فها هى تجرِّم عملها ، وأسلافها ، مما يكسف بريق الجهود التى تقوم بها الآن فى مجال التنصير .

ولم تكن الكنيسة وحدها !

فهناك جانب كبير من المفكرين يرى فيما حدث شيئاً يستحق الاستنكار والتنديد به ، واعتذروا فعلاً بوسيلة أو بأخرى .

كما اعتذروا جميعاً من قبل ، حكومةً وكنيسة ومفكرين ، عن طرد اليهود من إسبانيا ، اعتذروا للرأى العام اليهودى ، وللحكومة الإسرائيلية ، وبدأوا يعيدون كتابة هذا الجانب من تاريخ إسبانيا من جديد ، وأزالوا كل التعريفات السياحية فى مدينة طليطلة التى ارتبطت بسجن اليهود أو محاكمتهم .

الطائفة الوحيدة التى لم يعتذر لها أحد ، لا الحكومة ولا الكنيسة ولا رجال الفكر ، هم المسلمون المنفيون ، والذين ماتوا تعذيباً أو حرقاً ، ولو أن أندلثيا المستقلة ذاتياً والمنصفين من الكتاب بدأوا يأخذون لهم بحقهم ، أما غيرهم فلا ، ربما لأن المسلمين فى واقعهم المعاصر - أشتاتاً ، شيعاً وأحزاباً - لا يمثلون ثقلاً حقيقيا فى حركة الحياة .